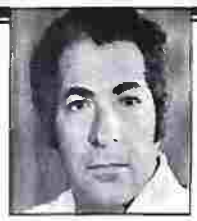

أنيس منصور

يوم كنا أحجارا لاينبت عليها العشب!

هناك بعض الأغانى تعجبنى . وأجد فيها تعبيرا عن حالتى النفسية .. وأحيانا أذهب إلى أبعد من ذلك فأتصور أنها تتحدث عنى .. فإذا وصلت فى أوهامى إلى هذه الدرجة فإننى أشعر بأن شاب صغير مراهق . وإن كنت لا أذهب إلى أبعد من ذلك .. فعندما غنى عبد الحليم حافظ : راح . راح .. كنت فى الشارع مفصولا من عملى كرئيس لتحرير مجلة « الجيل » ومدرس للفلسفة بكلية الآداب .. فعلا كل شىء راح .. مع أن الذى راح من عبد الحليم حافظ شىء آخر تماما . والذى راح من عبد الحليم كان تمثيلا فى تمثيل .. أما الذى راح منى فحقيقة !

كيف راح كل شىء فجأة .. العمل راح . والأمان راح . والبيت راح وليس أمامى إلا شوارع القاهرة أرتادها فلا أرى شيئا . وإذا حاولت أن أرى . فلكى أتلقت وراى لعل أجد ذلك المخبر الذى يشى ورائى .. مع أننى لا أملك أى شىء ولا أستطيع أى شىء .. وكل الذى يشغلنى ليلا ونهارا هو كيف المحابل على أمى فلا تعرف أننى مفصول من عملى .. فى حياتنا أحداث أليمة .. وذكريات موجعة .. فقد فصل والدى من عمله كثيرا ولأسباب تتعلق بطيبة قلبه . وسفالة الذين كان يعمل عندهم ومعهم من الباشوات ونظار الزراعة .. ولكن ذكريات الفصل أو ترك العمل .. وأن يصحو الإنسان من النوم ليجد أمه قد ربطت العفش والملابس ووضعت ساعة الحائط تحت أرجلنا لنسافر بها من بلد إلى بلد شىء رهيب لا أستطيع أن أشاء .. والله يعلم أننى حاولت ذلك كثيرا ..

كيف فصلت من عملى ..

كل شىء كان مفاجأة .

بدأت بأن مددت يدى إلى قارىء الكف محمد جعفر . مددت يدى . فردها وكأنها رأس حية رقطاء لاذعته .. أو كأنه قرأ فى كفى خطاب استدعاء من المدعى الاشتراكى .

قال لى محمد جعفر : اسمع يا ابنى .. أنت مفصول هذا العام . لن ينتهى هذا العام إلا وأنت بإذن الله تعالى فى الشارع .. لا هذا المكتب ولا هذا المبنى .

أما هذا المكتب فقد كان فى غرفة أسانذة قسم الفلسفة بكلية الآداب .. وأما المبنى فهو مبنى أخبار اليوم .

وبالفعل فى يوم الكوبسماس استدعانى مدير مكتب كمال رفعت الوزير الشيوعى وكان أيامها مشرفا على أخبار اليوم . وطلب لى على غير العادة فنجانا من الشاى . وتناقشنا فى موضوعات كثيرة . ولا بد أن الناس خارج غرفة هذا المدير كانوا يحسدوننى على هذا الشرف العظيم - أى أن يستدعينى مدير مكتب الوزير وأن تطول إقامتى فى مكتبه .. وقد نبهنى بعض الزملاء إلى أننى جلست عنده أكثر من خمس دقائق .. وبقسم آخرون أنى أمضيت أكثر من سبع دقائق . وهذا رقم قياسى . فقد كان المألوف فى ذلك الوقت ألا يذهب أحد إلى مكتب المدير .. وإنما يجىء سكرتير المدير فيخبر رئيس السعاة الذى يطلب إلى أحد السعاة استدعاء أى رئيس تحرير إلى مكتب السيد السكرتير ليجلس ساعة وبعد ذلك يعتذر له عن انشغال السيد المدير .. ولكننى جلست أكثر من سبع دقائق ..

وكانت هذه الدقائق كافية لأن يذهب السيد السكرتير ومعه السيد رئيس السعاة إلى مكتبى ويفتشاه ثم يغلقاه بالشمع الأحمر .. وعندما تم لهما ذلك . اتصلا بالسيد المدير وأخبراه بذلك فى اللحظة التى كنت قد فرغت فيها من شرب الينسون لأسمع منه أن أخرج من أخبار اليوم إلى الشارع إلى البيت ولا أعود .. فهذه هى التعليمات ..

أما السبب فهو مقال كتبته بعنوان « حار الشيخ عبد السلام » بتاريخ سابق على ذلك بأيام .. وعلى مكتب جمال عبد الناصر نفس المقال مع تأشيرة من على صبرى تقول : هذا هو المقال وفى انتظار أوامركم ..

ونفس المقال مع تأشيرة من المخابرات العامة تقول : وفى انتظار أوامركم ..

وكان جمال عبد الناصر فى طريقه إلى الجزائر .. وأنا فى طريق إلى الشارع .. وظللت انتقل من شارع إلى شارع ومن بيت إلى بيت ستة كاملة !

لا أعرف لماذا خرجت أو أخرجت .. ودون أن يكون لى أدنى حق فى مرتبى .. ولا شىء فى أتفق إلا أغنية عبد الحليم حافظ : راح .. راح ..

وعندما غنى عبد الحليم حافظ : قارئة الفنجان .. اتصلت به . الله يرحمه . وقلت له : يا حليم .. إن هذه أغنية أخرى تذكرنى بالذى مضى !

وقال لى : مفقود يارلدى مفقود !

ونجاة أصبح من الصعب أن أتعامل مع أى أحد ..

ووجدت أن الحل الوحيد هو ألا يرانى أحد وألا أرى أحدا . فالناس يخافون . إنهم أكثر خوفا منى .. لأن هناك عشرات الأنواع من التهم من الممكن أن تؤدى إلى فصل أى إنسان من عمله .. التآمر على قلب نظام الحكم .. والشيوعية والتجسس .. والتآمر على جمال عبد الناصر ..

وكلها كالأمراض المعدية .. تنتقل بمجرد اللمس أو بمجرد التفكير فيها ..

ولذلك قررت أن أبعد حتى لا أنقل العدوى إلى أى أحد .. وفى ذلك الوقت سمعت من المرحوم على أمين هذه العبارة : لا تمتحن أحدا الآن . وإلا فقدت كل الناس !

ولم أنس هذا المعنى فى هذا الوقت ما كان يصح أن أحاسب الناس على خوفهم منى . وحرصهم على الابتعاد عنى .. فهم معذورون ثم إننى لم أكن على خلاف مع وزير . وأرجو عطف رئيس الجمهورية .. وإنما على خلاف مع رئيس الدولة . ولا أعرفه ولا أعرف كيف أصل إليه .. فالزحام حوله شديد .. ثم إن هناك مئات من الناس قد أصابهم ما أصابنى ولأسباب مختلفة . وكما هى العادة : لا أحد يعرف لماذا خرج ولا متى يعود !

وليس من العقل أن ألوم الناس . فلو كنت فى مكان كل الناس . ما فعلت غير الذى فعلوا .

وبسرعة غريبة انسدت الأبواب من تلقاء نفسها ..

فأصدقائى فى الإذاعة رفضوا أن يتعاونوا معى فقد كنت أكتب القصة ويقرؤها المذيع .. قالوا لى : نأسف . أى لا داعى لأن أكتب قصة ليقرأها واحد آخر .. على الرغم من أنه لا خوف منى .

طلبت أن أعمل دون أن يعرف أحد اسمى . ورفضوا ..

هنا تقدم لى الصديق عبد التواب يوسف مؤلف قصص الأطفال .. وشاركته فى برنامج صغير . دون أن يكون لى اسم . وظللت كذلك شهورا ..

ولم يكن لى مكان آوى إليه كل ليلة .. سوى بيت

مصطفى أمين .. حيث نلتقى بعلى أمين وعبد الحليم حافظ وكمال الطويل وكامل الشناوى . وفى هذا الجو ينسى الإنسان ما الذى أصابه .. والذى أصاب مصطفى أمين وعلى أمين .. بعد ذلك .. ولم يكن صعبا أن يمضى أكثر الليل فى ضحك وفى الفرجة على الذين يلعبون الكومى .. ولكن المشكلة كلها كيف يمضى النهار .. فقد كان ثقيلا أيضا . وكان أثقل ما فى النهار : أشعة الشمس .. لأنها تجعلنى أرى الناس وهم يحاولون ألا يرونى ..

وكثيرا ما يفعلون ذلك بغباوة أو سخافة .. أو بكون تقديم لرزيتى مهينا أكثر من الرزية نفسها .

وبصورة أتوماتيكية اعتذرت دور النشر عن عدم قبول أى كتاب من تأليفى أو من ترجمتى . وفى إحدى المرات ذهبت إلى ناشر صديق . فقلت له : عندى كتاب عن « أقصر طريق إلى سعادتك »

فقال : سخرية من السعادة ؟ ..

■ قلت : إنه كتاب جاد

قال : جاف ؟ ..

بسبب هذا المقال
فصلنى جمال عبد الناصر عاما
وحرمنى من التأليف والخروج من مصر!

حمار الشيخ عبد السلام

حدث

هذا فى القاهرة من ٧٠٠ سنة .. علم أهل القرية أن الشيخ عبد السلام قد أهين . فقرر أن يترك القاهرة .

وأن الخلاف بينه وبين السلطان على سيادة القانون .

القانون مع الشيخ .. والسيف مع السلطان .

القانون يحميه إيمان الشيخ عبد السلام . والظلم مع السلطان يحميه السيف .. ويحميه ألوف المماليك الطغاة الظالمين ..

وخاف الناس وانتفضوا على الشيخ . وراحوا يمسكون بالشيخ عبد السلام .. ويشيرون إلى أولاده .. ويشير هو إلى السماء .. يشيرون إلى صمته . ويشير هو إلى الأرض التى هى نهاية كل حى ..

يشيرون إلى الحرير .. وهو يشير إلى حماره الذى وقف بالباب ينتظر التحرك إلى الشام ..

قالوا له : الصبر يا شيخ !

■ قال : لا صبر على ظالم !

قالوا له : الحلم يا شيخ !

■ قال : لا حلم مع جاهل !

قالوا له : السلطان يحبك

■ قال : بل يجب ضعفى أمام القانون !

قالوا له : لا حياة للمسلمين بعدك ؟

■ قال : الإسلام له رب يحميه !

قالوا له : السلطان يقتلك .

■ قال : ليس أروع من الموت فى سبيل الله !

قالوا له : إرضاء السلطان سهل ..

■ قال : إرضاء السلطان إغضاب لله .

قالوا له : يكفى تقبيل يديه . وبعد ذلك كل شىء يهون .

■ قال : بل كل شىء يهون إلا هذا !

قالوا له : ألا تقبل يدى ابنك ؟

■ قال : فعلت ذلك كثيرا ..

قالوا له : تصور أن يد السلطان هى يد ابنك تقبلها من أجل المسلمين

■ قال : لو كان السلطان لا يدرى ماأفعل . لقبلت يده ألف مرة .. ولو كان لا يدرى ، فأنا أدرى . وأعرف أن هذا هوان .. اتركونى !

وركب حماره واتجه به إلى الشام ..

إنه فى هذه اللحظة كان يشبه الفتى الإنجليزى الكسيح فى الأوبرا الأمريكية « بورجى » عندما اتجه إلى نيويورك على ظهر مفعد له عجلات وكانت تجره معزة ..

إن بورجى هذا اتجه إلى نيويورك يبحث عن محبوبته التى خطفها أحد البلطجية .. ومن ورائه أهل المدينة يرثون لحاله . لأنه لا يعرف أن أمامه خمسة آلاف ميل لكى يصل إلى محبوبته !

ومن وراء الشيخ عز الدين بن عبد السلام خرج سكان القاهرة . فلا حياة لهم بعد هذا القاضى العادل الذى يواجه ظلم السلطان والمماليك .

وبومها قال أحد رجال الحاشية للسلطان : إذا خرج هذا الرجل من مصر سقط عرشك !.

وخرج السلطان ليرى ماذا فعل الشيخ عبد السلام . فوجد عددا كبيرا من الناس يمشون وراءه يبكون .. كلهم من الفقراء والأغنياء ..

وأرسل له السلطان رجال الحاشية ولكن الشيخ أصر على السفر إلى الشام .

وكان الشيخ عبد السلام يتحدث إلى الناس وهو راكب حماره .

■ وكان يقول : إننى أخذ معى حمارى هذا بالنيابة عن بقية الحمير التى تركتها ورائى فى مصر !

•••

وأخيرا جاء السلطان وطلب من الشيخ أن يعود .

■ واعتدل الشيخ فى جلسته فوق الحمار وقال : ومطالبى ؟

قال له السلطان : أحققها لك .. فأنت الشريعة يا شيخ عبد السلام ..

قال الشيخ : بل حارسها يا أيها الانسان !

وكان الشيخ عبد السلام طرازا غريبا من رجال الدين ..

كان يؤمن بالمساواة بين الناس جميعا .

لا فرق بين سلطان وبين أى إنسان .. لا فرق بين المماليك والتجار ..

وكان ينادى المملوك بقوله : يا .. أى شىء يا أى حاجة ..

وكان ينادى العلماء بقوله : يا طالب .. يا إمام !

وعندما رجع الشيخ عز الدين بن عبد السلام قاضى قضاة مصر . التف الناس حوله يشكون من ظلم المماليك ومن حماية السلطان لهم . وقرر الشيخ عبد السلام أن ينفذ تعاليم الشريعة الإسلامية . ويطبق سيادة القانون على الجميع ..

فالشريعة الإسلامية تنص على : أن المملوك لا يحق له البيع ولا الشراء ولا الزواج ولا الطلاق لأن المملوك بلا إرادة ولا عقل .. وليس حراً .. أى أنه لا شىء !.

ولكى يتحول المملوك إلى « شىء » يجب أن يباع فى مزاد علنى . والذى يشترى هذا المملوك له وحده الحق فى أن يطلق سراحه .. أى فى أن ينعم عليه بنعمة الإنسان الحر فإذا صار حراً أصبحت له حقوق جميع المواطنين الأحرار ..

ومعنى ذلك أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام يرى أن الأمراء المماليك يجب أن يباعوا كالبهائم فى السوق . قبل أن تكون لهم هذه السلطة على المصريين الأحرار ..

وهذا رأى الشريعة ..

فالشيخ عبد السلام قد أفتى وأعلن كلمة الشريعة ثم جلس فى بيته ..

وضجت القاهرة بالدهشة والخوف وانزعج السلطان .

وذهب المماليك إلى مولاهم السلطان يطلبون إليه أن يمسح هذا العار .

■ قلت : جاد .. سهل العبارة وفيه شيء من المرح .

قال : سياسي ؟

■ قلت : دراسات نفسية وقصص عاطفية تاريخية .

قال : هل يصدق الناس أنك لا تسخر من جمال عبد الناصر ؟

■ قلت : لا علاقة للكتاب بالسياسة .

قال : وكيف أقنع الناس بذلك .. ثم كيف يصدر لك كتاب الآن . وأنت متآمر على الحاكم .

■ قلت : إنني لم اتآمر .. وكل ما هنالك أنني كتبت مقالا اعتبره الحاكم نوعا من التعريض والسخرية وانتهى هذا بوقوف أمامك أعرض عليك كتابا من تأليفي ومن نجاربي ..

قال : أنت تعرف أن جمال عبد الناصر لا يرحم .. وأنت لا يرضيك أن أمشي معك في نفس الطريق وأنسول .. أنا صاحب عيال .. وأنت وفقك الحمد . لا عندك أولاد ولا عندك زوجة .. خفيف . اذهب الله يجنن عليك .. أنت من سكة وأنا من سكة ..

وثار السلطان . عندما علم أن القاهرة كلها تنتظر هذا اليوم العظيم .. وأن الشيخ عبد السلام متمسك برأيه .. وإلا فالحمار بالباب والطريق مفتوح إلى الشام !

وأصبح حمار الشيخ عبد السلام أشهر حمار في القاهرة وأحب الحيوانات إلى الأمراء . فلا يكاد الواحد منهم يمر ببيت الشيخ عبد السلام حتى ينزل من فوق حصانه ويتفرج على الحمار وفي بعض الأحيان يقبله

وكان الشيخ عبد السلام يسمع لهذه الأقوال البيضاء التي قبلت الحمار أن تقبل يده . وحجته في ذلك :

■ أن حماري هذا أفضل من المماليك . ثم إن قبلات المماليك لا تنقض الوضوء !

وكان يقولها جادا .. فالشيخ عبد السلام لا يعرف المزاح .

وعندما طالب ببيع الأمراء . لم يكن يدرك هذه النكتة التاريخية .. ولم يكن يتصور ان هذا شيء جديد في التاريخ .. لم يكن يدري ان هذه العبارة التي قالها في ثانية ستصبح صرخة لتوفيق الحكيم بعنوان « السلطان الحائر » بعد سبعة قرون ..

ولكن الشيخ عبد السلام كان بسيطا وكان جادا جانا .

وحاول أحد الأمراء أن يقتل الشيخ عبد السلام ..

ثم ذهب إليه السلطان بنفسه .. وفي يده سيف ..

وأمام عدد كبير من الخدم ، دق باب الشيخ برجله .. ثم بسيفه .. وكان ابن الشيخ هو الذي فتح الباب .

فقال له السلطان : قل لوالدك أن يعدل عن رأيه وإلا قتلته !

وظهر الشيخ عبد السلام .. ونظر الشيخ الى السلطان كما تنظر الأفعى إلى العصفورة الصغيرة فتسقط العصفورة من شدة الفزع .. وسقط السيف من يد السلطان .. وسقط السلطان ايضا . ولكن الشيخ عبد السلام أصر على بيع المماليك

ولم يجد الأمراء مفرا من الشيخ أو من الشريعة ..

وأعلن الشيخ عبد السلام في القاهرة أن : الأمراء للبيع ..

ولم يقبل البيع الرمزي .. أي بمجرد إهانة هؤلاء المماليك وعرضهم كالمالئية أمام المواطنين . وإنما البيع معناه البيع . وبأغلى الأسعار لأن هذه الأموال يجب أن تدخل خزانة المسلمين ..

واتفق كل مملوك مع أحد أصدقائه على ان يشتريه ..

وكان الشيخ عبد السلام يطلب ثمنا غاليا في كل مملوك ..

وبنفس الروح الجادة التي لا تفهم المزاح في الحق .. باع الشيخ عبد السلام حماره في نفس السوق .. فلا فرق بين الحمير والأمير .. « كلها » أو « كلهم » حيوانات مادامت بلا عقل ولا عدل ولا حرية ..

● ● باع حماره لأنه قرر البقاء في مصر . بعد أن تحرروا من العبيد الذين يحكمون الأحرار !

وطويت صفحة الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، ولكن الشيخ نفسه يظل برأسه وبروحه في ساعات الأزمات في التاريخ ..

ولا أدعي أنني أراه الآن وان كنت أتمنى أن أراه .. وإذا ظهر فسوف يجد له ألوف التابعين . ولكن من المؤكد أن حماره سوف يجد أكثر من ثلاثين مليونا ..

■ مدد يا شيخ عبد السلام مدد !!

●

ونكرت في الهجرة من مصر نهائيا ..

وذهبت إلى المرحوم علي أمين . ومنعني بعنف أن أفكر في شيء من ذلك . وأنه يجب أن أصبر . وأن جمال عبد الناصر لن يعيش إلى الأبد .. وأن هذا الذي حدث لي هو شرف عظيم وأن هذا أقصى ما يبلغه أي كاتب ..

وشجعني بعض الأصدقاء في البلاد العربية على السفر إلى غير رجعة .. وكانت أمي مريضة ثم إنني بدأت أعتاد على هذا الذي أعمله . أي الذي لا أعمله .. وأحسست أنني نزيل في أوسع سجن في الدنيا : الشوارع .. والمطاعم وبيت مصطفى أمين .. والنهار الثقيل والليل القصير .. والنوم المتقطع وأوجاع المصران .. وبكاء أمي ومنتجات فهمي .. وأغنية عبد الحليم راح .. ضاع .. تاه .. داخ ..

وعدت إلى عملي ، أكثر فرقا وأكثر خوفا .. ولكن أكثر شجاعة .. أو أكثر بلادة .. فما الذي حدث لي .. لا شيء غير الخوف الذي اعتدت عليه . وغير الضياع الذي ألفته .. لقد كنت تلقا قبل ذلك لأسباب عقلية . فأصبحت تلقا لأسباب عقلية وعملية .. وفي نفس الوقت أدركت أقصى ما يمكن أن يصيبني إذا كتبت كلاما ومزيا له ألف معنى .. ولم يكن نقدا مباشرا لا يحاسب عليه القانون ..

ومن شدة الخوف بدأت أتعثر في الأخطاء .. أتوهم الأخطاء وأتعثر فيها .. وأصبحت مشكلتي ككاتب ليس الذي أفكر في كتابته . وإنما الذي لا يصح أن أكتبه .. أو لا يصح أن أفكر في كتابته أو عدم كتابته .. لقد نولد في داخلي رقيب صحفي ورقيب على المصنفات الأدبية والفنية ورجال رسناج .. فلا أكاد أمسك القلم حتى يقف هذا الصف من الجلادين والرقباء أمامي .. واحد يعطي القلم والثاني يمسك الحبر والثالث يمسك الورقة والرابع يفتح النور والخامس يرتطفي لعلي أكتب ويمضي في هزي لعلي أصحو .. وفي كل مرة يجدني جثة هامدة على الورق .. فيطفيء النور ويأخذ الحبر ويسحب القلم ويتلاشون جميعا من أمامي .. أو أتلاشى أمامهم جميعا ..

وفي لحظة التلاشي هذا يصبح النوم والأمن والأمان والإيمان شيئا عزيزا !

ومن الأشياء التي حيرتني صغيرا هذا الجمر الكئيب في بيتنا .. لا يوجد ضحك ولا فرح وكنت أسمع أن والدي رحمه الله كان مرحا ولطيفا . كان شاعرا ينظم الشعر الرقيق ، ويحفظه ويرويه . ويطلب إليه الناس ذلك وكان يدعون عند صلاة الفجر إلى أن أجلس معه .. لأشرب الشاي بالنعناع وأصلي وراءه دون أن أدري ما الذي أفعله . ولكن والدي كان يحبني ولا يحب أن يكون وحده .. وقد حفظت الهزيمة التربة والبردة للبوصيري وأنا طفل صغير جدا قبل أن أدخل كتاب القرية .. وفي نفس الوقت لا أفهم مما يقوله أبي شيئا .. وحفظت القرآن الكريم في ستين . وأنا لا أفهم كلمة واحدة منه .. ولكن أبي ليس كذلك في البيت . لماذا ؟ هل لأن أمي شديدة الحساسية .. هل لأن أمي قد عارضت أسرتها كلها فتزوجت أبي الذي يكبرها بعشرين عاما . هل لأنه كان من الأفضل لها أن تبقى بين أهلها وتتزوج أحد أقاربها من أصحاب الأراضي بدلا من أن تتزوج واحدا من الأفندية

يتنقل بها وبأولادها كل يوم فى بلد. لقد كانت أسرتنا الصغيرة كالمثل الإغريقى الذى يقول: إن الحجر المتحرك لا ينبت عليه العشب!

فنحن نتحرك كل يوم فى بلد.. لماذا؟ لأن أبى يغير عمله من شهر إلى شهر. لماذا؟ لأنه عمل حر.. أى لأنه ليس موظفا فى الحكومة. فلا شىء يرفضه إلا نزوات السيد.. أى صاحب الإقطاع.. فقد عمل أبى بأمورا لتفاتيش عدلى باشا يكن وغيره.. وكان هذا العمل حرا.. أى لا يخضع للوائح أو لوائين. وكان أبى لا يطيق أن يقيد عمل.. أو يجرحه أحد بكلمة.. وكان أبى لا يتصور أنه فى الإمكان أن يدوس الإنسان على كرامته من أجل شىء.. ولم يكن أبى مرنا.. ولا سياسيا.. وإنما هو رجل فنان ينظم القصيدة فى أى إتسان ويدفع الثمن.. ويكون الثمن أن يلم العفش ويلم أطفاله فى سيارة من بلد إلى بلد..

هذا التنقل قد أورثنا القلق.

هذا القلق قد أورثنا الخوف.

هذا الخوف قد أورثنا اليأس..

هذا اليأس قد جعل البيت كئيبا. والنهار ليلا. والليل خوفا. والطعام مرا. وجعل أبى صغيرا عاجزا. وجعلنا عبئا ثقيلا على أمنا..

يكفى أننا لسنا ككل خلق الله: بيتا مستقرا. وعلاقات طويلة. وصداقات متينة.. إننا شجرة لا نكاد نزرعها حتى نقلعها. ولا نكاد نقلعها حتى نزرعها.. وتذبل الشجرة حتى الموت.. وكذلك كانت كل علاقاتنا أوراقا صفراء على شجرة ذابلة..

■■ هذه المعانى التى احتشدت كلها فى رأسى وفى عينى وجعلتنى عاجزا عن أن أقول لأمى: إننى مفصول من عملى.. تماما كما كان يحدث لأبى.. وإنى قد ورثت عن أبى أشياء كثيرة من بينها أن أجد نفسى كل يوم على باب..

لقد ورثت عن أبى الزهد فى هذه الدنيا.. فلا شىء يغرينى ولا شىء يخيفنى. ولا يهمنى كثيرا أو قليلا أن أكون مالكا لبيت أو أرض أو أى شىء.. لقد عاش أبى لا يملك، ومات لا يملك..

ولكنه لم يكن فى استطاعته أن يملك.. فالحجر الذى يتحرك لا يملك عشبا واحدا.. ولكى يكون عشب. لا بد أن يستقر الحجر على الأرض. وأن يبلله الماء. وأن تسقط عليه بعض البذور.. وتنبت البذور.. وتورق وتكبر - كل ذلك إذا استقر الحجر..

ولكن أحجارنا لم تستقر..

وفتحت عينى وأغمضتها على مرض أبى وبكاء أمى.. وراء الباب تنتظر عودة أبى فلا يعود.. تبكى مرة أخرى لأنها لا تستطيع أن تعود إلى بيت أبيها. فقد تحدت الجميع. وخرجت فلا تعود!

ولما عدت إلى عملى فى أخبار اليوم رئيسا لتحرير الجيل، قررت أن أبحث عن طريقة لكى أترك مصر..

وواجهتنى مشكلة. أن أمى على خلاف مع أهلها.. والخلاف أنها ورثت ثلاثة أفدنة أو ستة.. والله لا أعرف حتى الآن. فلا يهمنى أن أملك.. عاشت أمى وماتت دون أن تحصل عليها.. ولا بد أن تنفق على هذه القضية ضد إخوتها حتى الموت.. ومات أكثر من محام.. ومات القاضى ومات المستأجرون.. وماتت له أخوات.. وأمى مصرة على أن تكسب هذه القضية ويوم ماتت أمى حكت لها المحكمة بنصيبها من الأرض. وفى الصفحة التى نشر فيها خبر الوفاة نشر قرار الرئيس السادات بأن أكون رئيسا لتحرير آخر ساعة وعضوا لمجلس إدارة أخبار اليوم. وتلاقت برقيات التعزية والتهنئة معا.. التهنئة بمنصبى الجديد، والتهنئة بقرار المحكمة وكانت نكتة لم يضحك لها أحد!

■■ وتغيرت الدنيا.. ولم يعد الخوف هو الهواء الذى يتنفسه كل الناس.. ولم يعد الأرق هو الطعام الذى يأكله كل صاحب قلم..

إن أقلاما كثيرة تهاجم مصر وحاكم مصر، ويعود أصحابها إلى بيوتهم يجدون كل شىء كما تركوه فى الصباح.. البيت والزوجة والأولاد، والمرتب فى نهاية الشهر.. ولا داعى لأن يتلفت الواحد منهم وراءه ليجد أن مخبرا يتابعه.. يعد عليه خطواته وتحياته وسلاماته..

أذكر أننى كنت على موعد. وبعد أن تركت سيارتى فى الجراج.. عدت لآخذها من جديد.. ولكنى أكره قيادة السيارات لأننى أسرع كثيرا وأصطدم بالأشياء وبأعمدة النور وبالناس.. فقررت أن أستوقف أحد التاكسيات. ووقف التاكسى. ومددت يدى أفتح الباب.. ودخلت لأصطدم بواحد ركب من الناحية الأخرى. وجلس. واندهشت وسألته فوجدته يصرخ فى وجهى: يا سعادة البيه قطعت نفسى.. أنا صاحب عيال يا بيه!

إنه المخبر قد تعب من متابعتى!

لقد سمعت الرئيس السادات يقول: أعجبنى على بن أبى طالب عندما قال: لو كان الفقر رجلا لقتلته. أما أنا فأقول: لو كان الخوف رجلا لقتلته!

إنه أندح من الجوع.. إن الإنسان يجوع باختياره فيصوم..

ولكن الخوف.. هذا التسلل العقلى.. هذا الزلزال الوجدانى.. هذا السم يسرى فى الأيدى فلا تكتب، وفى العقل فلا يفكر، وفى القلب فلا يدق إلا مسامير فى نعش الحياة. ان الخوف ليس رجلا إنه ملايين الرجال.. فالخائف يتوهم أن الذين يطاردونه بالألوف، والذين يحاكمونه بمئات الألوف، والذين يريدون القضاء عليه بالملايين.. فلو كان الخوف رجلا واحدا لقاتلته حتى تقتله.. ولكن الخوف، بعدد خلايانا، بعدد كريات الدم البيضاء والحمراء، ملايين من الحشرات اللاسعة السامة!

■■ فالخوف هو النهار يأكل الليل.. هو الأرق يلتهم النوم.. هو الشك يمتص الايمان.. هو الكريات البيضاء تمحو الكريات الحمراء.. هو الموت يزحف على الحياة وأى أمل فى النجاة!

أنيس منصور

وعادت مصر إلى حجمها الطبيعى

إبراهيم صالح

فى ١٥ مايو عام ١٩٧١ وضعت مصر - بيد السادات - حجر الأساس لصرح ضخم وعظيم فى البناء الداخلى والخارجى، بدءا من عودة القيم الروحية والأخلاقية والقانونية إلى المجتمع المصرى.. إلى تخليص الإرادة المصرية من أى تدخل أجنبى، نصر أكتوبر الرائع جمع شمل العرب فى أول وحدة حقيقية فى تاريخهم الحديث، خلق أول إحساس فى تاريخ إسرائيل بانتهاء عصر التوسع فى الأرض العربية، أول اعتراف فى تاريخ أمريكا - فضلا عن اعتراف العالم كله - بحق الفلسطينيين باختصار.. عودة مصر إلى حجمها الطبيعى والحضارى فى المجتمع الدولى.

وحتى ندرك أبعاد ما تحقق منذ ذلك التاريخ، أرجو أن نتذكر معا أن مصر كانت - لسنوات طويلة - مهلهلة العلاقات مع ثلاثة أرباع العالم.

استراتيجية ثابتة

ومع التخلص من مراكز القوى نشطت الحركة فى مجال العلاقات الدولية لمصر. دول تتقرب ودول تبتعد. وأدركت الدبلوماسية المصرية أن عليها أن تضع استراتيجية مصرية ثابتة تتحكم بها فى «الشراع» ولا تترك الهواء يعبث بقاربها فى المحيط الدولى. وكانت «مصر» هى هدف كل عناصر الاستراتيجية المصرية التى بدأت تتبلور ملامحها:

١ - ليس لمصر أطماع فى أحد. وليس

مسموحا لأحد أن تكون له أطماع فى مصر.

٢ ـ سياستنا الخارجية تقوم على القيم والمبادىء الأخلاقية والدولية المتعارف عليها.. بثبات ووضوح. نعرف ماذا نريد من العالم حولنا. وبحيث يستطيع العالم أن يعرف مقدما ما يستطيع أن يحصل عليه منا.

٣ ـ قلب مفتوح للعالم كله.. نتكافأ فيه الفرص أمام الجميع، جوهرها المنافع المتبادلة على أساس الصداقة المتساوية، ومظهرها الندية لا التبعية.

٤ ـ الحساب العلمى الدقيق لكل خطوة نخطوها. واضعين فى اعتبارنا آثار كل حركة فى المدى البعيد، بنفس قدر اهتمامنا بالنتائج القريبة.

● وبدأ تطبيق هذه السياسة بقوة وحسم فى المجال الدولى.

● وانفتح العالم كله علينا ما دام قد وجد الفرصة سانحة لإقامة علاقات صحية سليمة معنا.

● ولقيت هذه السياسة تأييدا دوليا متزايدا وصل إلى ما يشبه الاجماع.

ولأول مرة فى علاقاتنا الدولية بصفة عامة وفى مشكلة الشرق الأوسط بصفة خاصة، انتقل زمام المبادأة إلى أيدينا. ووجدت اسرائيل نفسها فى مركز الدفاع الدبلوماسى لأول مرة فى تاريخها. أفلاسها تلهث وهى عاجزة عن ملاحقة التحرك الدبلوماسى المصرى فى أنحاء العالم. حتى أنه عندما جاءت حرب أكتوبر ١٩٧٣، لم تجد فى الأمم المتحدة «الأصوات» التى تعودت أن تصرخ بها فى وجهنا.

وبدأت مصر تجنى ثمار الاستراتيجية الجديدة.

وكان النصر.. والوحدة

توقفت مصر عن إثارة أى خلاف مع أى دولة عربية شقيقة. ولذلك، عندما أصدر السادات قراره التاريخى بحرب أكتوبر ١٩٧٣، لم تكن هناك وراء، ظهره أى مشكلة.. بل كان العكس صحيحا. حملت سوريا السلاح إلى جانبه. سارعت دول الخليج تشهر سلاح البترول فى وجه العالم. هبت دول أخرى ترسل عتادا وقوات إلى الميدان. طار الرئيس هوارى بومدين يشترى لنا المدرعات. اقترض الشيخ زايد آل نهيان ١٠٠ مليون دولار لتمويل المعركة.

واستمر التأييد العربى يتزايد رغم مرور بعض السحب فى سمائه ولكنها انقشعت جميعا. وعندما احتاجت مصر ودول المواجهة إلى دعم اقتصادى مدت الشعوب العربية القادرة يدها. وعندما اتخذ الرئيس السادات قراره بتنويع مصادر السلاح ودعم القدرة على انتاجه تجاوبت الدول القادرة. وعندما واجه الاقتصادى المصرى أزمة يناير بأحداثها المفتعلة هبت دول الخليج ١٥٠٠ مليون دولار لموازنة العجز. وكلها سلطة

● الملك فيصل

● الرئيس هوارى بومدين

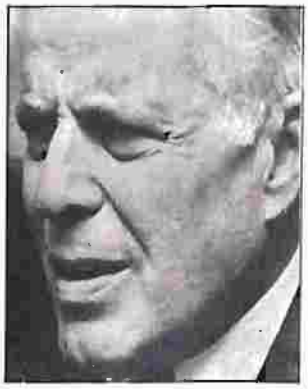

● الرئيس بورقيبة

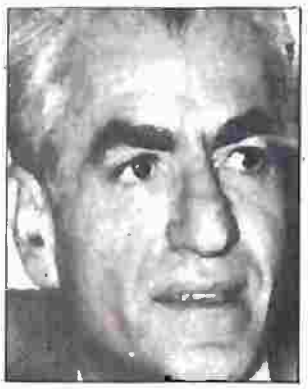

● شاه ايران

متلاحقة فى أروع وحدة فعلية فى تاريخ العرب الحديث دون مواثيق مكتوبة.

●● وطول الطريق لم نحد مصر عن الهدف العربى الموحد.. تحرير كل شبر من الأرض العربية، وعودة الحق الفلسطينى المشروع فى الوطن والدول مع عدم التدخل فى شئونهم. فهم وحدهم أصحاب الحق فى التحدث عن أنفسهم.

أمريكا والوطن الفلسطينى

العلامة الأخرى على الطريق هى تطور الموقف الأمريكى تجاه قضية الشرق الأوسط والذى ترتب بصفة أساسية على التحرك الدبلوماسى المصرى. ويكفى أن يصرح رئيس أمريكى لأول مرة منذ قيام اسرائيل، بحق الفلسطينيين فى وطن قومى، ويكفى أن تصوت أمريكا فى مجلس الأمن ضد اسرائيل وتصرفاتها التعسفية فى الأرض المحتلة.. لأول مرة يستقبل رئيس أمريكى ممثلا لشعب فلسطين فى حفل رسمى. ولأول مرة تعطى أمريكا مشكلة الشرق الأوسط أولوية مطلقة

نحن نريد الصداقة

أما التطور الذى طرأ على العلاقات المصرية السوفيتية فموقفنا فيه واضح. إذا كنا قد استغنينا عن الخبراء السوفيت فى القوات المسلحة المصرية، أو نوعنا مصادر السلاح، أو اتخذنا قرار الحرب بإرادتنا المصرية الحرة المستقلة، فليس ذلك استغناء عن الصداقة مع السوفييت. فمصر كانت، ومازالت، وستظل دائما.. حريصة على علاقاتها الطيبة مع الاتحاد السوفيتى.. ولكن على أساس صداقة متوازنة.. متسارية الحقوق والواجبات. من هذا المنطلق كان لقاء اسماعيل فهمى نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية، مع أندريه جروميكو فى صوفيا فى نوفمبر الماضى.

ومن هذا المنطلق أعلن الرئيس السادات فى ديسمبر الماضى أنه على استعداد أن يتم اللقاء ثلاثى بين فهمى وجروميكو. وأنه شخصيا على استعداد أن يجلس مع بريجنيف لانهاء كل شىء.

●● ومازلنا ننتظر.

تعاون مع أوروبا

وكان التجاوب الأوربى مع الانفتاح المصرى سريعا وإيجابيا.. سياسيا واقتصاديا. فبعد شهر واحد من حرب أكتوبر أصدرت المجموعة الأوربية بيانا تدين فيه احتلال الأرض بالقوة وتدعو إلى تطبيق قرارات الأمم المتحدة وانسحاب اسرائيل من الأرض المحتلة. وزادت على ذلك فى يناير الماضى، اجماعها على حق الفلسطينيين فى إقامة وطن قومى لهم وإن كان هذا البيان لم يذع رسميا بعد.

وعقدت السوق الأوروبية المشتركة اتفاقا بعاملة تفضيلية مع مصر، تخفض بمقتضاها الرسوم الجمركية على بعض الصادرات المصرية بنسبة ٨٠٪ إلى جانب معونة تزيد على ٢٠٠ مليون دولار.

وتقطع الحوار العربى الأوربى شوطا كبيرا فى محاولة التقريب بين وجهات نظر المجموعتين

والقوى الدولية الأخرى

●● وزادت الثمار الناضجة على شجر السياسة المصرية الخارجية.

● علاقات ممتازة مع الصين الشعبية.. القوة السياسية العاملة.

● تعاون اقتصادى وتكنولوجى على أعلى مستوى وأوسع نطاق مع اليابان.. القوة الاقتصادية الضخمة.

● مركز قيادى فى حركة عدم الانحياز واكتسابها بالكامل مع الحق العربى حتى أنها شكلت لجنة خاصة لمشكلة الشرق الأوسط.

● ثقة مطلقة من مجموعة الدول النامية حتى أنها طلبت أن تتولى مصر تمثيلها فى مجموعات الاتصال التى شكلها مؤتمر الحوار مع الدول المتقدمة.

● جهد متواصل فى القارة الافريقية استطاع أن يكون ركيزة لنجاح أول مؤتمر قمة أفريقى ـ عربى فى التاريخ. ومن قبله نجح فى أن يقطع علاقات الدول الأفريقية جميعا ـ باستثناء ثلاث دول عنصرية ـ مع إسرائيل قبل حرب أكتوبر، وكسب أصواتها جميعا فى الأمم المتحدة.

ومازال الجهد المصرى فى أفريقيا يبذل أقصى ما فى طاقته للحفاظ على وحدة القارة الأفريقية واستقلالها ضد كل تدخل أجنبى.

اهتمام خاص نجح فى تدعيم علاقات مصر مع دول أمريكا اللاتينية وانتماءها بعدالة الحق العربى.

الثمرة الكبرى

وبعد ست سنوات مازالت مصر على نفس الطريق فى سياستها الخارجية. فهى ـ كما قلنا ـ استراتيجية بعيدة المدى.. ثابتة وواضحة، وليست مرحلة تكتيكية. والثمار الناضجة على شجرة السياسة الخارجية المصرية تتزايد يوما بعد يوم.. تفطنها مصر بثقة وبإحساس النجاح بعد الجهد.

●● ولكننا مازلنا فى انتظار نضج الثمرة الكبرى.. مؤتمر جنيف.. حيث الحل الشامل.. والسلام الدائم والعادل.. فى الشرق الأوسط.

●